الفلسفة والفن .. جدلية الالتقاء والتباعد

د.محمد كـرد [*]

مقدمة:

أُعتبرت الفلسفة ومنذ اللحظة **الأفلاطونية** الأساس الوحيد للكشف عن حقيقة الوجود، ليبقى بذلك **الفن** مجالا للوهم والخطأ والزيف، وليتم ربط الإنتاج **الفني** بالأشباح، لقد كان **لأفلاطون** موقف سلبي تماما من **الفن** بشكل عام ومن **الشعر** بشكل خاص، حيث وضع الشعراء أمام خيار صعب، فإما التوقف عن كتابة الشعر، أو أن يتمّ طردهم من مدينته الفاضلة (مدينة التأملات الفلسفية..) التي أسّسها على أصول ذات بعد **ميتافيزيقي**...، سيتأسس إذن بداية من هذه اللحظة **التباعد** بين الفن والفلسفة على اعتبار الفلسفة تفكير عقلي صارم أداته المفاهيم التي يعتبرها بعض الفلاسفة بمثابة التعريف الأساسي للفلسفة..، في حين يعتبر أن مرجعية الفنان لا تخرج عن إطار الصورة أو الظل، أي عما هو ظاهري، وكذلك حينما يؤكد على أن العنصر الفاعل في التعامل مع هذه المرجعية يختزل على العموم في المشاعر والأحاسيس الحيوانية، أي المكون السيئ للروح، إن المحتوى **الأنطولوجي** لما يقوم به الفنان بشكل عام والشاعر بشكل خاص، يقوم على انعدام أي حقيقة مستقلة عن الأصل "الإيدوس **eidos**"، بالإضافة إلى ذلك فإن العمل الفني (الشعري) قد يُشوه شكل النموذج الأصل ..، هذا الأمر يحط من قيمة هذا العمل ووظيفته.

وعلى العكس من ذلك تتجه أغلب الرؤى الفلسفية اليوم إلى اعتبار **الفن** الأساس الأول لتحقيق الإبداع، ولا يمكن أن يكون بإمكان الفلسفة أن تنال حظها بصدد هذا الأخير إلا إذا هي أدركت شروط التجربة الفنية لتوجه وفقها التفكير، بإمكان **الفكر**، ومن خلال العمل الفني مثلا أن ينجو من قبضة

*- قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفهوم ومن مسكة النسق الفلسفي، ليدشن بذلك بداية جديدة تعود به إلى أصوله ما قبل **السقراطية (بارمينيد، هيراقليط** بالأخص).

1- مرحلة ما قبل سقراط أو لحظة الالتقاء:

إن الحديث عن نشأة الفلسفة يدفعنا حتما إلى الحديث عن ارتباطها بالأسطورة. فتاريخ الفلسفة يضع الأسطورة كبداية فعلية للفلسفة، إلا أن هذا التاريخ ينقل لنا هذه النشأة ليس كامتداد وتواصل للفكر في مساره، وإنما على النقيض من ذلك كفصل وتمييز بين الخطاب الفلسفي الذي يتسم بالعقلانية ويقوم على محددات منهجية وموضوعية والخطاب الأسطوري باعتباره فكرا بدائيا لاعقلاني، يقول **جان بيير فرنان J.P.Vernant** (ت: 2007) في كتابه "أصول الفكر الإغريقي": "يظهر إذن أن ميلاد الفلسفة قد واكب تحولين ذهنيين عظيمين: ظهور فكر وضعي يتنافر وكل شكل من أشكال الخوارق، ويرفض التشبيه الضمني الذي تقيمه الأسطورة بين الظواهر الطبيعية والعوامل الخارقة، ثم ظهور فكر مجرد يخلص الواقع من قوة التغير التي كانت الأسطورة تفرضها فيه. كما يقضي على الصورة العتيقة لوحدة الأضداد ليقول بمبدأ الهوية"[1]؛ فبداية الفلسفة تُرصد في أغلب الأحيان كانفصال تدريجي يتم بعيدا عن كل خطاب يقوم على أساس الأسطورة، ذلك أن تاريخ الفلسفة يحدد بداية هذه الأخيرة بقيام مفهوم العقل الذي ساد مع **سقراط** و**أفلاطون**، وبذلك أصبح الحديث عن الفلسفة حديث عن العقلانية التي أعلنت بدايتها كانفصال تام ومطلق عما عداها من الخطابات التي كانت تقوم أساسا على الأسطورة؛ وهكذا سيكون تاريخ الفلسفة هو التاريخ **السقراطي**، وهذا المعنى هو الذي يذهب إليه **أرنست كاسيرر Ernst Cassirer** (ت: 1945) في مؤلفه "الدولة والأسطورة" عندما يقول: "ونحن إذا أردنا التغلب على سلطان الأسطورة علينا أن نبحث عن القوة الموجبة المسماة "معرفة الذات"، وعلينا أن ننميها. فعلينا أن نتعلم كيف نرى طبيعة البشر في ضوء أخلاقي بدلا من رؤيتها في ضوء أسطوري"[2]؛

1-J. Pierre Vernant : ***Les Origines de le pensée grecque***. Gallimard, p :127.

2- ارنست كاسير: الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص: 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تبعا لهذه الرؤية، نرى أن النموذج **السقراطي- الأفلاطوني** هو النموذج الذي تَأْخُذُ به الفلسفة الغربية في كل مرة للتمييز بين ما هو فلسفي علمي قائم على العقل والمنطق وما هو لا-عقلاني ولا-منطقي، يقول **هيدغر** في مؤلفه "متاهات" للتعبير على هذه الفكرة: "في كل تأويل ودراسة للفلاسفة الأوائل، تصبح فلسفة أفلاطون وأرسطو معيارا، وبهذا يكونان معيار كل فلسفة، السابقة واللاحقة لهما"[1].

هكذا يكون الفكر في مرحلة ما قبل **سقراط** ليس فلسفة؛ لكننا لن نأخذ الفكر هنا بمعناه السلبي، هذا ما يؤكد عليه **هيدغر**، فتاريخ الفكر لا يمكن أن تستوعبه الفلسفة في مجالها وخطابها، ذلك أن الخطاب (الفكر) الإغريقي هو **أشمل وأغنى** من الفلسفة، فالفكر لا يولد ولا ينشأ، وإنما يتحول ويصير، وتحوله هو تاريخه الذي يكشف عنه الوجود باستمرار بأوجه وعلامات مختلفة؛ **فتاريخ الفكر، إذن، هو تاريخ الوجود في تجلياته، ولن تكون الفلسفة إلا وجها من وجوه تجليه باعتباره ميتافيزيقا.**

سيكون تاريخ الفلسفة بهذا المعنى هو سؤال عن ماهية الفلسفة كتأمل وتفكير في الوجود، ذلك أن ما يقال في هذا التاريخ كسؤال ومنذ البداية هو **الوجود نفسه**، بهذا المعنى تكون الفلسفة فكرا ووجودا يكشف عن علاقة الإنسان بالوجود، وتكون الفلسفة بحق يونانية في ماهيتها وأصلها، يقول **هيدغر** في محاضرته "ما الفلسفة؟": "لا نصبح عارفين بالفلسفة إلا عندما نتعلم كيف وفي أي طريقة تكون، إنها تكون في طريقة الاستجابة التي تتناغم مع صوت وجود الموجود"[2].

ينبغي، إذن، إعادة النظر في الفلسفة اليونانية وفي مدى تطابقها مع الفكر كسؤال عن حقيقة الوجود، إذ أن الوجود وكما يقول ذلك **أرسطو**: "يتبدى على أنحاء شتى"[3]، ولن تكون الفلسفة بهذا المعنى إلا وجها واحدا من

---

1 - Martin Heidegger : ***chemins qui ne mènent nulle part***, trad : Clossowski Brokmeier, Gallimard , 1962, p : 388.

2- مارتن هيدغر: ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلين وماهية الشعر، ترجمة: فؤاد كامل ومحمود رجب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص: 71

3- المرجع نفسه، ص: 73

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذه الوجوه، ولهذا يتعين علينا العودة إلى الفكر اليوناني للكشف عن المسارات التي سلكها الفكر قبل أن يصير فلسفة.

لا تكون الفلسفة هي المسار الفكري الوحيد من حيث هي قضية فكر ووجود، ذلك أن الفكر، قبل أن يتقيد بمعايير العلمية والموضوعية والمنطقية ليصبح فلسفة، ارتبط بالبعد الشعري كإمكانية للتفكير في الحقيقة والوجود والإنسان، وهذا ما شكل بالفعل التجربة الأولى لهذا الفكر.

لهذا السبب يقول **هيدغر** في محاضرته "ما الفلسفة؟": "إن الاستجابة إلى وجود الموجود لتظل بدون شك مستقرنا على الدوام. لكنها لا تصبح موقفا نعتنقه إلا في أوقات نادرة فقط، وعندما يتحقق ذلك تستجيب حقا إلى هذا الذي يهم الفلسفة، والذي هو الطريق المؤدي إلى وجود الموجود، الفلسفة هي الاستجابة إلى وجود الموجود، بيد أنها لن تكون كذلك إلا عندما تتحقق هذه الاستجابة بالفعل وتكشف بالتالي عن نفسها وتنشر هذا الانكشاف. إن هذه الاستجابة لتحدث بطرق مختلفة، تبعا لكيفية نداء الوجود"[1].

لقد ظل الفكر طوال تاريخه، يعد بحثا تساؤليا يحاول الكشف عن ماهية الوجود، بحيث كانت هذه المسألة، أول مسألة أثارت واجتذبت أنظار واهتمام المفكرين، ومثلت بالنسبة لهم أكثر الأشياء إثارة للدهشة (**L'étonnement**)– أو ليست الدهشة هي بداية الفلسفة– "يقول **أفلاطون** (في محاورة **Théétète** من 55أ إلى 55د): إنه أمر متعلق حقاً بفيلسوف، هذا الذي نسميه (**باثوس**) أي هذا الذي نسميه دهشة، إذ ليس هناك ابتداء **départ** يهيمن على الفلسفة غير الدهشة"[2]. يؤكد **مارتن هيدغر** على هذا الأمر في محاضرته "ما الفلسفة؟"، التي ألقاها سنة 1955 بفرنسا، حيث قال:"الموجود كله في الوجود، مثل هذا القول، يرن في أسماعنا كأنه قول مبتذل، إن لم يكن مهينا، لأنه ما من أحد بحاجة إلى أن يهتم بأن الموجود يرجع إلى الموجود (...) ومع ذلك، فهذه الحقيقة التي تقول بأن الموجود يبقى مجمعا

1- المرجع نفسه، ص: 67.

2 - Martin Heidegger: ***Questions II*** ,trad : J. Beaufret et R. Munier, nrf, Gallimard,1968, p:32.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في الوجود، وأن الموجود يظهر في ضوء الوجود، هي التي أوقعت اليونانيين– وهم وحدهم و قبل غيرهم– في الاندهاش، الموجود في الوجود، هذه هي الحقيقة التي أصبحت بالنسبة لليونانيين أكثر الأشياء إثارة للدهشة"[1].

إن الفكر اليوناني في فجره الأول (مرحلة ما قبل **سقراط**) بحث في أمر الوجود المادي وفي أصله وفي حقيقته وهل هو واحد أم متعدد؟ وانقسم المفكرون في ذلك فرقاً؛ فأوائلهم مثل "**طاليس**" **Thales** (631 ق.م 550ق.م تقريباً)، و"**أنكسيمندر**" **Anaximander** (610ق.م– 546ق.م)، و"**أنكسيمانس**" **Anaximens** (588ق.م–524ق.م تقريبا) كانوا من الماديين، وكان معنى الوجود منحصراً عندهم في العالم المادي أو الطبيعي، فتصوروا الموجود الأول الحقيقي الذي يعد أصل كل شيء، ومنه نبع كل موجود، شيئاً مادياً، إذ يرى "**طاليس**" مثلا، أن الأشياء كلها تصدر عن أصل واحد هو "**الماء**"، فهي رغم اختلافاتها الظاهرة واحدة؛ أما المادة التي تكونت منها سائر الموجودات، عند "**انكسيمانس**" فهي "**الهواء**"، وهي مادة لانهائية متحركة، هي علة الحياة في العوالم، وفي جميع الأشياء المتحركة،؛ ثم ظهر فيلسوف سماه اليونانيون– **الغامض**– حيث نجده يستعين في كل خطاباته بالأسلوب الشعري، ذلك هو "**هيرقليط الأفيزي**" **Héraclite**، (ت:530 –475 ق.م تقريباً) الذي قال عنه **هيدغر** في كتابه "متاهات": "إنه يتحدث بطرقة شعرية، وذلك لأن لغة المفاهيم غريبة عنه بالضرورة"[2]. حيث اعتبر أن "**النار**" هي المبدأ الأول، الذي تصدر عنه الأشياء، وترجع إليه، ليست النار التي ندركها بالحواس، بل هي نار إلهية لطيفة، أثيرية، حارة حية، عاقلة وأزلية، هي حياة العالم وقانونه (**لوغوس**)* **Logos**،"إن النار هي التجميع (**اللوغوس**)"[1].

1- مارتن هيدغر: ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلين وماهية الشعر، مرجع سابق، ص: 119.

2-Martin Heidegger : ***chemins qui ne mènent nulle part***, op, cit, p : 410

***- يعود هيدغر، لكي يتفكر في مفهوم اللوغوس، إلى الفعل اليوناني الذي اشتُق منه هذا المفهوم، وهو: legein، فاستخرج معانيه من نص "هيراقليط"، وقد أثبت هيدغر معنيين لهذا الفعل وهما: «"الوضع" و"الجمع"، وبذلك يكون legein هو "الوضع الجامع"، والوضع في الاصطلاح الهيدغري يوجب أن يكون "الموضوع" شيئا ألقي بين أيدينا، فالموضوع هو الملقى بين الأيدي، على أن يكون فعل الإلقاء واقعا على مجموع الشيء، وليس على بعضه، ومن هنا كان من الواجب الاهتمام بما هو ملقى بين أيدينا، لأنه يعنينا، وهذه العناية تتجلى في حفظ هذا الشيء الملقى والإبقاء على كونه ملقى بجمعيته بين أيدينا، والحفاظ على هذا الملقى إنما يعود لكونه قد خرج من**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي مقابل التغير الهيرقليطي، نجد في شعر "**بارميند**" **Parménide** (450 ق.م) ما يؤكد وضع أساس ميتافيزيقا الوجود، فليس عنده في العالم المادي إلا الوجود؛ كما نجده في أشعاره يحاول أن يحدد اللوغوس انطلاقا من الميثوس، فخطابه يتخذ من الأسطورة دعامة لإظهار محددات التفكير السليم، يقول **بارميند:** "مدت إلى الآلهة بكل سخاء يدها وهي تنظر في المستقبل. أخذت بيدي اليمنى وألقت إلي الكلام هكذا منشدة"[2]. لن تكون هنا الآلهة التي يتكلم بلسانها بارمينيد دالة سوى على الحقيقة أو كما سماها اليونان "الأليثيا **Alethia**"؛ سيمثل بارمينيد في شذرته سؤال الحقيقة، وستتمثل الآلهة جواب حقيقة الوجود، أما **خطابه الشعري فهو يمثل مسكن الوجود،** يقول **هيدغر** في محاضرته "ما الفلسفة؟" ما نصه: "**فهيرقليط** و**بارمنيد** كانا أعظم المفكرين، بمعنى أنهما كانا على الدوام في وانسجام مع "اللوغوس" أي: مع "الواحد (هو) الكل"[3]، (أي في انسجام مع الوجود). وعندما سأل كل من **ايريك روبارسي** و**دومينيك لوبوهان جون بوفري** **Jean Beaufret** (ت:1982)، المتخصص في فلسفة **هيدغر** "لماذا هذه العودة الدائمة إلى الإغريق في فكر **هيدغر**؟ **pourquoi ce retour aux grecs** ؟"، أجاب: "لأن الإغريق كانوا دون علم منهم، "المهندسين" الأوائل للوجود **topologistes de l'être**"[4]، ولم يكن **هيدغر**، من خلال هذه العودة إلى الإغريق، يهدف إلى اعادة بناء نسق معين، وإنما كان الغرض هو التفكير في مسألة الميتافيزيقا، وأن نتعلم من خلال ذلك كيف يمكن أن يصبح ما هو شديد البعد إلى ما هو أقرب إلينا.

حالة التستر إلى حالة الظهور والتجلي، ومن هنا كان الفعل legein دالا على "حفظ الشيء في حضوره"». طه عبد الرحمن: فقه الفلسفة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999، ص: 305.

1- مارتن هيدغر : مارتن هيدغر: نداء الحقيقة، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1977ص:401

2-Martin Heidegger:***Essais et conférences***,André Préau, Gallimard, 1958, P:168.

3- مارتن هيدغر: ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن و ماهية الشعر، مرجع سابق، ص ص 60- 61.

4 - Gey Basset : ***Le retour aux Grecs***, in magazine littéraire, n 09 , Mars-Avril 2006, p : 22.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما هو مؤكد، لا جدال فيه، هو أن الفكر الإغريقي، وحتى عهد **السفسطائيين**، كان يعتمد على القول الشعري للتعبير عن حقائقه ومضامينه، **لقد مثل الشعر مسكن كل خطاب (خطاب الفكر) تناول سؤال الوجود**، "ويبحث الفكر –في طاعته لنداء الوجود– عن "**الكلمة**" التي يمكن أن يتم من خلالها التعبير عن حقيقة الوجود (...) فمن الصمت الطويل، ومن التطهير الشديد العناية بالميدان الذي تم تطهره على هذا النحو، تخرج أقوال المفكر. ومن مثل هذا الأصل تتم تسمية الشاعر"[1]، لكن لماذا سار الفكر الإغريقي في هذه الحقبة في هذا الاتجاه؟ ما هو السر في هذا التقارب والتفاهم بين الشعر والفكر؟ ولماذا كان الشعر بالأخص، في هذه الفترة، من ينال هذا التشريف في تسمية الأشياء من خلال ربطها ببعدها الأنطولوجي الذي يحدث فيه الانكشاف؟

علينا أولا توضيح الفكرة التالية: لا يقصد بالشعر هنا كل خطاب يتخذ شكل القصيدة، ذلك لأن المضامين كانت تصاغ هي بدورها بشكل شعري، **فالشعر ليس مجرد أسلوب وشكل، وإنما هو أيضا مجاز واستعارة وكناية**، كأن يقول **هيراقليط** مثلا : "إن المرء لا يستطيع أن يستحم في ماء النهر مرتين"، أو قوله: "إن الرب الذي تقوم معجزته في معبد دلفي لا يفصح ولا يخفي ولكنه يلمح"، هنا لا يكون المقصود استنتاج المعاني المباشرة، فماء النهر هنا مثلا ما هو إلا رمز، وسيكون القول تساؤل عن رؤية للوجود وماهية الحقيقة، ومن هنا يمكن مقاربته بما يسمح بميلاد المفهوم، يتضح، إذن، أن الشعر في ممارساته الأولى مع الإغريق كان تعبير عن فعل فني لقول الوجود.

لم يكن الشعر كما فهمه الإغريق مجرد خطاب يقوم بوصفه فنا لغويا بمعنى مجرد لغة تخضع للموسيقى والوزن، وإنما كان يمثل بالنسبة إليهم المجال الذي يؤسس لفعل الخلق والإبداع، فالشعر،إذن، بهذا المعنى **هو الذي يسمح بإخراج الشيء من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل**، أو هو

---

[1]- مارتن هيدغر: ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا هولدرلين وماهية الشعر، مرجع سابق، ص: 136.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الذي ينقل الشيء من العدم إلى الوجود، والنص التالي لأفلاطون يشير إلى هذا المعنى؛ تقول العرافة ديوتيم مخاطبة **سقراط:**

كما تعرف هناك فاعلية إبداعية، معقدة ومتعددة. ذلك كله بسبب الانتقال من اللاوجود إلى الوجود الذي يكون "**شعرا**" أو خلقا، والعمليات لكل الفنون هي عمليات إبداعية، وأسياد الفنون هم كلهم شعراء أو مبدعون (...) يبقى، أن تعلم أنهم لا يسمون شعراء، بل لهم أسماء أخرى؛ إن ذلك الجزء من الفاعلية الإبداعية فقط الذي يكون مفصولا عن الباقي والذي يختص بعلم الموسيقى ووزن الألحان، إن ذلك الجزء يدعى باسم الكل ويسمى **قصيدة،** وأولئك الذين يمتلكون قصائد في هذا المعنى للكلمة يُسمون شعراء"[1].

أهم ما يمكن أن نستخلصه من هذا النص هو:

– أن الشعر (**البويزيس** **Poésis**) هو ما ينقل الشيء من العدم إلى الوجود، من التحجب والتستر إلى التجلي والظهور.

– أن **البويزيس** وبفعل انتمائه إلى عالم اللغة لا يكتسب صفة الشعرية إلا من خلال الوزن والموسيقى.

لقد آمن الفكر الإغريقي في هذه اللحظة من تاريخ الفكر بوجوب خضوع الخطاب إلى تبني القول الشعري من حيث هو الحقيقة الاستعارية والمجازية للوجود، والتي يتعذر على الخطاب الفلسفي، كما تجلى فيما بعد أن يستضيفه ويتبناه، يقول هيدغر "**الميثوس** **Mythos**، و**اللوغوس** **Logos** لا يبتعد أحدهما عن الآخر، ولا يتعارضان"[2].

انطلق الفكر الإغريقي من **الفن** (باعتبار أن كل فن هو في أساسه شعر) لفهم **الفيزيس** **Physis**، فلم يكن من الممكن أن يتحدد هذا الأخير إلا باعتباره انفتاحا شعريا، "لم ينطلق الإغريق مما هو طبيعي لفهم **الفيزيس،**

1- أفلاطون: المحاورات الكاملة، ترجمة: شوقي داود تمراز، المجلد الرابع، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص: 168.

2- Martin Heidegger *: **Q'appelle-t-on penser?*** Trad : G. Granel, Gallimard, 1971. p :26

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بل على النقيض من ذلك. إن ما تم تحديده تحت اسم **الفيزيس** لم ينكشف لهم إلا على أساس تجربة أساسية للوجود بما هي تجربة شعرية"[1].

2- **أفلاطون أو لحظة بداية التباعد:**

لقد مثلت **الأفلاطونية** قفزة في تاريخ الفكر الإغريقي، حيث تحولت معاني الكثير من المفاهيم الأساسية للفكر، كمفهوم الحقيقة ومفهوم الشعر والفكر والوجود والماهية والإنسان والتاريخ..، مما أدى إلى إحداث تحول طرأ على ماهية الفكر الإغريقي بشكل خاص والفكر الغربي بشكل عام؛ وما يثير اهتمامنا هنا هو ابتعاد **أفلاطون** كلية في تحديده لماهية هذه المفاهيم عن كل دلالة انطولوجية تحاول أن تقترب من متاهة الزمن، ليقف بذلك فقط في فلسفته على الفكر الخالص دون قدرة على ملامسة الأشياء في تغيراتها، هذا ما جعل كل تساؤل فلسفي خاضعا بالضرورة لـــ "محكمة التفتيش العقلية"، "على كل حال فإن سقراط بشيطانه الخفي والداخلي وموته الواضح، و**أفلاطون** بفلسفته، قد وضعا فكرا خالصا، بدون أن يختلط بالشعر. وما يمكن أن ندعوه فلسفة خالصة لم يكن قد امتلك قوة تناول الموضوعات الحاسمة، التي كان يطرحها الإنسان الأكثر تطورا في زمانه"[2].

وحتى يتسنى لنا فهم ميتافيزيقا **أفلاطون**، يتوجب علينا بداية إثارة التساؤلات التالية: كيف أصبحت علاقة **الفن (الشعر) بالفكر (الفلسفة)** كما حددها **أفلاطون؟** وبأي مفهوم يتعين أن نفكر في ماهية **الفن؟** وهل سيكون مصير **الفن** هو الرحيل من أجل البحث عن إمكانية الكشف عن الوجود فلسفياً؟

إذا كنا نستخدم لفظ **الشعر** تارة، ولفظ **الفن** تارة أخرى، فذلك لأن نقد **أفلاطون** للفن تركز بوجه خاص على الشعر، وهو نقد يقوم على استبعاد

---

1 - Martin Heidegger : ***Introduction à la métaphysique***, trad : Gilbert Kahn, Gallimard, 1967, p: 27

2- مارتن هيدغر: في الفلسفة والشعر، ترجمة: عثمان أمين، الدار القومية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 1963، ص: 36.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشعر من كل عمل تأسيسي يهدف إلى بناء صرح أنطولوجي تتحدد من خلاله ماهية الإنسان وماهية الوجود الحقيقي بالتالي.

تمثل اللحظة **الأفلاطونية** بداية فعلية لتصدع وتفكك التلاحم الذي كان سائدا بين الشعر والفكر، يقول **هيدغر** معبرًا عن هذه البداية: **التصادم** حدث بين الفكر والشعر في لقائهما الأولي، عندما انعتقت الفلسفة من طابعها الأسطوري الأصلي، عندما كانت الفلسفة تسعى لفهم الوجود الذي عبر عنه العقل الذي يدلنا على الحقيقة"[1]، يمكننا القول أن مسألة الحقيقة هي السبب الأول الذي جعل **أفلاطون** يؤسس لهذا الصراع والعداء بين الفلسفة والشعر، فنحن أمام خطابين يدعي كل منهما قدرته على قول الحقيقة، على هذا الأساس يحاول **أفلاطون** أن يؤسس الخطاب الفلسفي على معايير العقلانية ليضمن صحة الادعاء بأحقية الكلام للفلسفة على الشعر، سنكون بداية من هذه اللحظة أمام نموذج جديد لخطاب عقلاني يقوم على الجدل والحوار كمنهج فعال لقول الحقيقة، يقول **أفلاطون** للتعبير عن ذلك في محاورة "فيدون" أو "خلود الروح"ما يلي: "وأحسن ما يكون الفكر حينما ينحصر في حدود نفسه، حتى لا يشغله شيء من هذه –فلا أصوات ولا مناظر ولا ألم ولا لذة مطلقا– وذلك إنما يكون عندما يصبح الفكر أقل اتصالا بالجسد، فلا يصله منه حس ولا شعور بل ينصرف بتطلعه إلى الكون"[2].

من خلال هذا النص، يتبين أن لا حقيقة عند **أفلاطون** إلا تلك التي نبلغها بالعقل لا غير، ومن هنا كان رفضه ونقده للبدن في لذاته وحواسه وألمه وشعوره؛ فالعلم لا يمكن أن تأتي به الحواس؛ **العقل** وحده، إذن، هو الأداة التي يمكن أن نستعين بها للوصول إلى المعرفة (الحقيقة).

مع بدية هذا التحول إذن ستنتهي مرحلة مثلها الفكر الإغريقي قبل **سقراط** والذي كانت الحقيقة فيه ينظر إليها باعتبارها انكشاف وانفتاح

1- المرجع نفسه، ص: 43.

2 -أفلاطون : المحاورات "أوطيفرون، الدفاع، أقريطون، فيدون"، عربها عن الانجليزية: زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر،1966، ص:125.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"أليثيا"، كما لم تكن تعرف هذه المرحلة **التمييز Distinction** بين الجسد والعقل، وأنها كانت تُمَجِّدُ الحياة لذلك كان نيتشه يريد أن تعود هذه الفلسفة[1].

ستكون هذه الأسس التي فرضها **أفلاطون** على الفكر بمثابة منعطف في تاريخ الفكر الإغريقي، حيث طرحت مسألة الحقيقة كقضية منهجية بالأساس؛ ويتضح لنا من خلال ما حدده **أفلاطون** من أسس وقواعد للفكر، أن الفكر الإغريقي بدأ يفقد ماهيته الأصيلة لصالح ماهية جديدة تؤسس لظهور الفلسفة كخطاب عقلاني يقوم على الصرامة المنطقية، يقول **نيتشه:** "ما هو معنى ذلك الذي أوصل التراجيديا إلى موتها، الأخلاق بالمفهوم السقراطية، الديالكتيك، التواضع والابتهاج على ملامح المفكر"[2].

في الكتاب العاشر من محاورة "**الجمهورية**" يعلن **أفلاطون** عداءه الصريح للشعر والشعراء، والسبب في ذلك كما يقول **أفلاطون:** "يبدو لي أن لدينا أسباباً أقوى لاستبعاد هذا النوع من الشعر تماماً –القائم على المحاكاة– [...] فيبدو لي أن هذا النوع من الشعر يؤذي الأذهان التي تسمعه دون أن يكون لديها ترياق ضده، أعني معرفة الطبيعة الحقيقية لما يتحدث عنه هذا الشعر"[3].

لعرض هذا الرأي يبدأ **سقراط** بالتساؤل عن مفهوم المحاكاة، ولتقريب هذا المفهوم يضرب لذلك **سقراط** مثالا، فإذا رسم الفنان سريراً فلن يكون هذا السرير إلا صورة ثالثة من صور السرير، إذ هناك أولا السرير كفكرة و هو من خلق الله، و هناك السرير الذي صنعه النجار تقليدا للأول، وهناك أيضا السرير الذي صنعه الفنان وهو صورة لصورة السرير الأول، هذا التصور يدفعنا إلى القول أن عمل الفنان لا يحاكي الخلق الأول أو هو يكشف عنه كما هو في ذاته، بل يحاكي نسخة هي في أصلها نسخة للفكرة الحق، فالفنان أبعد عن الحقيقة ثلاث مرات فهو بعيد كل البعد عن الخلق **Création**، فعمل الفنان شبيه بالمرآة التي تعكس واقعا وهميا لاحقيقيا، فهناك

---

1 - Sarah Kofman : ***Nietzsche et la scène philosophique***, Paris 1979, p. 23

2- فريديريك نيتشه: مولد التراجيديا، ترجمة شاهر حسن عبيد، دار الحوار، الطبعة الأولى 2008، ص: 59.

3- أفلاطون :الجمهورية، دراسة وترجمة: فؤاد زكريا،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985 ص:529.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذن الفكرة ثم الصانع فالرسام، وحال المصور ينطبق على الشاعر التراجيدي لكونه محاك، وبالنظر إلى هذه التراتبية يبقى فعل الفنان بعيد كل البعد عن الحقيقة، لتبقى خاصية الإبداع بالنظر إلى هذا النسق الميتافيزيقي خاصة بالفلسفة، أما **الفن** فهو مجرد محاكاة لتلك الأشياء الفعلية التي أنتجتها الصنعة الإنسانية.

تكون **المحاكاة** نسخة من الدرجة الثانية لواقع هو نفسه نسخة للفكرة المطلقة؛ يقول **هيدغر**: "ونجد **أفلاطون** أقام تعارضا عنيفا بين شكلي الكلمة، وقد ترتب على ذلك الصراع ادانته للشعر لصالح العقل الفلسفي. وعلى هذه الصورة بدأ الشعر حياة منحوسة وخارج القانون، ليشتق طرقا ضيقة، ضالا أحيانا، وأحيانا أخرى فاسقا ومجنونا وملعونا. منذ أن انتصر الفكر واغتصب السلطة بدأ الشعر يسكن الضواحي ممزقا صارخا بكل الحقائق غير اللائقة"[1].

لا يرى **أفلاطون** في موضوع **الفن** شيئا يمكن للإنسان أن يضيفه على ما هو موجود من خلال العمل الفني، بل على العكس من ذلك، إن العمل الفني يشوه صورة الشيء، إنه يبعدنا عن حقيقة النموذج، لا يحاكي الفنان الوجود الحقيقي إنه يحاكي المحسوس.

مثل هذا النقد ينطبق إذن على **الفن** بشكل عام و على الشعر بوجه خاص، ففي الشعر من الأوزان و المؤثرات النفسية ما يحجب عنا صورة الوجود في حقيقته، إن سماع قصيدة شعرية لا يجعلنا نقف عند الموضوع الذي تثيره القصيدة وتأمل معانيه بل على العكس من ذلك تماما نتوجه بمشاعرنا لتذوق العوامل اللغوية والبلاغية والموسيقية المرتبطة بالقصيدة فننشغل عن كل رغبة أصيلة في المعرفة.

فالوجود والمحتوى **الأنطولوجي** لما يقوم به الفنان، يقومان على انعدام أي حقيقة مستقلة عن الأصل، بل إن الفنان قد يشوه، إلى أبعد حد، شكل النموذج المثال وهو أمر يحط من قيمة عمله ووظيفته، وعلى هذا الأساس نرى أن الفنان أو الشاعر لا يستند في عمله إلى أي حقيقة، لأجل

1- مارتن هيدغر: في الفلسفة والشعر، مرجع سابق، ص: 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك طرد **أفلاطون** الفنانين والشعراء من جمهوريته الفاضلة، فالشاعر يحاكي عالم المحسوسات وهي نفسها، إذن، ليست سوى محاكيات للعالم العلوي عالم "**الإيروس**".

إن نقد **أفلاطون** هذا يرتبط بالوضع الكلي لنسقه كمؤسس لدعائم ميتافيزيقا الوجود المتمثلة في التمييز بين ما هو موجود وما يظهر من جهة وما يكون من جهة أخرى؛ قام **أفلاطون**، إذن، بتشييد الميتافيزيقا على ثنائية العالم العلوي الخالد الثابت المدرك عقليا والعالم الزمني المحسوس المتغير والذي يمثل عالم الظلال والوهم.

وفي الكتاب الثالث من محاورة "**الجمهورية**" يستند **أفلاطون** على مفهومي **الوحدة** **L'unité** و**الكثرة** **La Pluralité** وهي من المفاهيم الأساسية في نسقه الميتافيزيقي، فإذا كانت الكثرة في ذاتها شر لأنها تعبير عن عالم التغير، وإذا كان العمل الشعري ينطوي على كثرة من الشخصيات والمواقف فهو أسوأ من كل عمل يكون بسيطا يصل إلى هدفه مباشرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشاعر الذي يقدم كثرة من الشخصيات لا بد متقمص كل هذه الشخصيات، وإذا كانت النفس تتأثر بالمحاكاة فإنها ستكون على شاكلة من تحاكي، فإذا كان من تحاكيه ضعيف أو جبان انتقلت هذه الصفة على الشاعر.

لقد وضع **أفلاطون حدا فاصلا بين الفلسفة (العلم) والفن (الشعر)**، فجعل قدرة الأولى على الكشف عن الحقيقة (حقيقة المثل) أكبر من قدرة الثانية أو لنقل أنه جعل من عمل الفن عملا وهميا يبعدنا عن كل حقيقة . "خاض الفكر والعنف لدى **أفلاطون**، لأجل الحقيقة، معركة كبيرة، كما هو حال الشعر، وفي معظم فصول حواراته تُحس هذه المعركة، ففي هذه الحوارات الدرامية تتصارع الأفكار، وخلف هذا الصراع هناك صراع أعلى يمكن التكهن به. وأعظم صراع هو ما قررته الفلسفة، ويبدو وكأنه قد ولد من أجل الشعر، وعلى هذه الطرقة في كل محاورة يجري الاحتكاك بالشعر، وفي هذا الاحتكاك تُحس عدالة ومتانة الشعر"[1].

1- مارتن هيدغر: في الفلسفة والشعر، مرجع سابق، ص: 35.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- الخاتمة:

إن العلاقة بين الفنان والفيلسوف قديمة، وهي وإن كانت قد اتخذت في بعض مراحلها صفة الصراع والتنكر للآخر والاحتراز منه، إلا أنها كانت في العمق وفي أغلب الحالات تعبير عن علاقة جوار وارتباط؛ فالعلاقة بين الفلسفة والفن في غاية التعقيد، فليس من السهل فصلهما أو الجمع بينهما، ففي كثير من الأحيان نجد الواحد منهما يتقمص الآخر ويحل فيه إلى درجة يصعب معها تعيين نوع الخطاب، وهذا لكونهما يقطنان نفس الفضاء ويقيمان في نفس المجال، ومن المؤكد أن ثمة فكر يكمن في ثنايا قصائد الكثير من الشعراء، من أمثال **طاغور**Tagor (ت: 1941) و**شكسبير** William Shakespeare (ت: 1616) و**نوفاليس** Novalis (ت:1801)، و**تراكل** Trakl (ت:1914)، وستيفن جورئجه، و**هيلدرلين** Hölderlin، و**بول فاليري** Vallery (ت:1945)، وغيرهم ...؛ كما أن هناك فلاسفة كانوا شعراء، ومنهم على سبيل المثال **هيراقليط** و**أفلاطون** و**نيتشه**.. وبذلك فإن الصراع بين الفلسفة والفن يبدو أقرب إلى صراع طرفين متكاملين، فالتجربتان تتقطعان وتتوازيان، بل وأحيانا تختلطان، حيث أن الفن والفلسفة صورتان إنسانيتان للتعبير عن الوجود، كما أن منطلقهما هو الإنية المتفاعلة روحيا وعقليا مع ذلك الوجود، فالعلاقة التي أقامتها الفلسفة مع الفن في بداية الفكر الغربي، وعند هيراقليط وبارمينيد هي علاقة تماهي تتم من منطلق التفكير في ماهية الفكر وهو يحاول أن يكشف عن ماهية الوجود، **فاللوغوس** Logos و**الميتوس** Mythos هما الحقيقة في وحدتها **كفيزيس** Physis، فالعلاقة هنا لا تقبل التجزيء، فكل طرف مسكون في الآخر.

ومن هنا سيكون على الفكر أن يستعيد مسارات العقل الذي أحكم قبضته على الفكر برمته، إن العقل ما إن يحتل عالم الفكر حتى يُخضع كل ميادين المعرفة لسلطته، وحده التفكير يكشف عن انتماء الفن لماهية "الأليثيا"، ستكون غاية "الفكر التأملي" هي التفكير في الوجود ولا شيء غير ذلك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com